الفصل الثالث

سانتيانا والنظرية الواقعية في الصدق

الفصل الثالث

سانتيانا والنظرية الواقعية في الصدق

في البدء لابد أن أشير إلى أن نظرية سانتيانا في الصدق لم تنشأ من فراغ فكري، حيث جاءت نظريته مشوبة باتجاهه العام في فلسفته ألا وهو الاتجاه الطبيعي، والذي تطور فيما بعد على يد سانتيانا ومجموعة من الفلاسفة المعاصرين وعرف باسم الواقعية النقدية(*) Critical Realism وعلى هذا الأساس الواقعي تنعت نظرية سانتيانا في الصدق بأنها نظرية واقعية، خرج بها سانتيانا من إطارها المألوف ألا وهو المنطق ونظرية المعرفة، ليصوغها في إطار الوجود أو الأنطولوجيا متأثرا في ذلك بالإتجاه الواقعي النقدي الذي انضم إليه مؤخرا، وذلك لا ينفي أن

(*) الواقعية النقدية Critical Realism اتجاه فلسفي معاصر، ظهر عام(1916) من سبعة فلاسفة انشقوا على المذهب الواقعي الجديد آنذاك، وكونوا مذهباً جديداً عرف باسم الواقعية النقدية، وقد انضم إليهم سانتيانا، وقاموا جميعاً بعمل واحد عبروا فيه عن أفكارهم تحت عنوان «مقالات فى الواقعية النقدية» Essays in Critical Realism. وقد كانت مشكلة الإدراك الحسي بدء تفكيرهم، إلا أنهم رفضوا موقف الواقعية الجديدة فى ضم العارف والمعروف فى نمط واحد، وعادوا إلى الثنائية التى يتميز فيها المُدْرِك من الشيء المُدْرَك، مع القول بأن الشيء المعروف هو وجوده الخارجى، وأن معرفتى به هى التى تؤدى إلى وجوده، ولكن وجوده مستقل عن هذه المعرفة كل الاستقلال، وهؤلاء الفلاسفة هم:

(1) Durant Darke»Vassar»,
(2) - A. O. Lovejoy «John Hopkins»,
(3) - J. B. Pratt»Williams»,
(4) - A.K.Rogers»Yale»,
(5) - G. Santayana»Harvard»
(6) - R. W.Sellars «Michigan»
(7) - C. A. Stronge «Columbia»

انظر - نجاح محسن: مدخل إلى الفلسفة، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص218.

تكون نظرية سانتيانا في الصدق مشوبة بمثالية متعالية قوية، حيث استطاع فيها فيلسوفنا الجمع بين الواقعية والمثالية، ولذلك ينعت بأنه فيلسوف واقعي نقدي[1].

وعلى هذه الجدلية التي تم تقديمها تتبادر الإشكاليات إلى الذهن بغرض الوقوف على كنه نظرية سانتيانا الواقعية في الصدق، وتكون الإشكاليات المطروحة من قبيل:

ما الصدق truth الذي يقصده سانتيانا في فلسفته؟ وما المنهج الذي اتبعه في تبرير نظريته؟ وكيف جاءت نظريته متضمنة ذلك المنهج؟ وكيف خالف بنظريته في الصدق النظريات التقليدية والنظريات المألوفة في الفكر الفلسفي والمنطقي؟ وهل كل ما في ذهن الإنسان من أفكار يقابله وجود حقيقي في العالم الخارجي؟

نبدأ بالتساؤل الأخير حتى نستطيع الوصول من خلاله إلي الإشكاليات الأخرى، فيرى سانتيانا أن الحالات التى تكون فيها الأفكار بغير مقابل خارجى لا شك فى قيامها، ولكن ليس فينا من لا يفرق بين هاتين الحالتين: حالة الفكرة التى يقابلها فى الخارج شيء عينى، وحالة الفكرة التى لا يقابلها شيء، ولولا «الإيمان الحيوانى» لما استطاع الإنسان أن يفرق بين هاتين الحالتين عندما تكون الفكرتان داخل الرأس على حد سواء، وبفضل هذا الإيمان الحيوانى ترانا نفرق بين وجودين: وجود عينى يقابل الأفكار ذوات المسميات الخارجية، ووجود ذهنى لمدلولات الأفكار الأخرى التى نعرف أن ليس لها مسميات خارجية[2].

وبناءً على ما سبق ينتهى بنا التحليل إلى وجود عالمين: عالم الممكنات (وهو الذى أطلق عليه سانتيانا عالم الجوهر أو الماهيات) وعالم المادة التي تمّكن بعض تلك الممكنات من الظهور الفعلى، لكن هذا الانتقال نفسه من عالم الإمكان إلى عالم الواقع فى الطبيعة المادية، يخلق لنا عالماً ثالثاً هو ما يسميه سانتيانا عالم الصدق Realm af Truth. وهو ذلك الجزء من عالم الماهيات «عالم الممكنات» - الذى خرج إلى عالم الواقع الفعلى، ولذلك كان «عالم الصدق» - هذا عالماً عرضياً كالوجود نفسه[3].

(1) عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 581.
(2) د/ زكى نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص ص 155، 156.
(3)زكي نجيب محمود: حياة الفكر فى العالم الجديد، مرجع سابق، ص 211.

ولتفسير ذلك، نجد أنه لم يكن هناك ضرورة عقلية تقتضى أن يخرج الصدق من عالم الممكنات هذا الجزء الذى خرج فعلاً دون سائر أجزاء الممكنات التى لم تخرج وظلت على حالها عالماً ممكناً، فالوجود كله عرضى، بمعنى أنه كان يجوز ألا يحدث وبالتالى يكون «الصدق» عرضياً - بمعنى أن ما قد تحقق فى عالم الواقع قد كان يجوز ألا يتحقق وأن يتحقق سواه من بقية الممكنات التى لم تقع، ولذلك فقد أخطأ الفلاسفة المثاليون جميعاً كما يرى سانتيانا حين ظنوا أن ثمة مبادئ عقلية قبلية ضرورية شاملة، صدقها محقق ويقينها ثابت، أخطئوا إذا ظنوا ذلك لأن الوجود كله بما فيه من عقول وما يترتب عليها من مبادئ الرياضة والمنطق - قد جاء عرضاً وقد كان يمكن ألا يجئ[1].

ولكن... ما الذي يعنيه الصدق في فلسفة سانتيانا الواقعية؟

يرى سانتيانا أن القارئ الفاحص لن يجد أي صعوبة في فهم المعنى المستخدم في كتاباته لتعريف كلمة الصدق، حيث إنه المعنى الذي تحمله الكلمة في المحادثات العادية، فهذه العبارات التي يقوم باقتراحها لا يمكن وصفها في رأيه أنها تصف المعنى الواضح لهذه الكلمة، ولكن استخدامها فقط يكون من أجل توضيح كلمة الصدق وتأكيدها في هذا الموضوع، حيث إن استخدامه لكلمة الصدق هنا كما يقول يختلف عن هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم خبراء في علم المنطق[2].

إن المعنى المحتمل للصدق عند سانتيانا هو عبارة عن مجموعة من القضايا الصادقة، أو العلم بالأشياء التى من شأنها التأكيد، كما أنه النظام المثالي الكامل للصفات والعلاقات التي يقوم رجل العلم بإثباتها أو محاولة إثباتها مستقبلاً[3]. حيث إن كلمة الصدق تعنى كل الأشياء التى يمكن رؤيتها تحت مسمى الخلود أو السرمدية eternity فكل رجل مفكر دائماً يفترض حقيقة الصدق الفعلى أو الصدق الواقعى، أو يفترض الصدق الذي لم يتم اكتشافه بشكل كبير، وهى الحالة التى يدعى فيها المفكر أنه ينقل جزء منها[4].

(1) المرجع السابق: ص 211.

(2) G. Santayana: Realms of Being , one volume Edition, With A New Introduction By the Author, Charles Scribner's sons, New York, 1942., p.401.

(3) Ibid: p.402.

(4) Ibid: p.402.

لقد أكد سانتيانا أن الصدق لانهائيDateless وأبدى Eternal، ولكنه ليس سرمدياً Timeless، لأنه عرضة للتغير حيث يتناول الوجود المتغير. فالصدق هو التاريخ المجمد Frozen history فإذا كان أفلاطون قد قال إن الزمن هو الصورة المتغيرة للخلود، فإننا نستطيع القول إن الخلود هو الصورة المركبة للزمن، ولكن الصدق أكثر من ذلك، لأنه بالإضافة إلى أنه يصف الأشياء فى علاقاتها الزمنية فهو يحتوى على كل شيء، حيث يحتوى على عالم الماهيات مضافاً إليه عالم الصدق[1]. وهذا ما أكده «جوزيف بلاو» Joseph L.Blau حيث رأى أن الصدق فى عوالم سانتيانا هو الجزء العملى فى عالم الماهية حيث تتكون منه هذه الماهيات، ويكون بالفعل فى الوجود. وهو ما أسماه سانتيانا باسم عالم الصدق[2].

لقد رأى سانتيانا أن الصدق ليس مجرد رأى، حتى إن كان هذا الرأى صحيحاً، لأنه بجانب التقييد في مجال الآراء الإنسانية لا يمكن الهروب منه، على الأقل حتى أن كانت معظم الآراء دقيقة وكاملة، بل ربما تعطى الأسبقية لبعض الحدود وتمتلك الاتجاه الوصفى فيها، وأن هذا الاتجاه المسحى قد يتغير أو يتبدل دون الوقوع في الخطأ، لذلك يعد الصدق هو الحقل الذي نأتى من خلاله بالآراء الصادقة للاتجاهات المختلفة، وليس لمجرد الرأى ذاته[3]. وذلك لأن الرأي لا يستطيع الوصول بسهولة إلى أهدافه بغض النظر عما إذا كان هذا الرأى معبرا عن حقيقة أو مجرد إفتراض، أو لكونه مؤكداً للموضوع الذى تم اختياره، فإن هذا الرأى لا يمكن اعتباره خطأ، لأنه لا يمكن أن يكون رأياً عن أى شيء[4]. كما أن هذه الآراء تكون صحيحة أو خاطئة إذا تم تكرارها، أو عندما تكون فى اتجاه مضاد للصدق الذى يعبر عن الحقائق التى يحتويها، من هنا فالصدق عبارة عن الحقائق التى تقدم وصفاً معيارياً مفهوماً لتلك الآراء[5].

أما الحقيقة كما يراها الفيلسوف محل الدراسة هى بالطبع الفكرة التى يمكن أن تكون صحيحة أو خاطئة، وذلك عندما تكون الفكرة لا تعنى تعريفاً ما عن صحة معلومة، ولكن

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 271.

(2) Joseph L. Blau: Men and Movements in American Philosophy, op. cit, P. 332.

(3) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 268.
See also, G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p. 403.

(4) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p. 402.

(5) Ibid: p. 403.

عندما تكـون الفكرة معبرة عن رأى ما، وكذلك معبرة عن العلاقة المجردة بين الفكرة وعنصر الصحة في أى رأى يمكن أن يكون صحيحا، وعلى أسـاس ذلك يمكن اعتبار هذا الرأى صحيحا ويمكن تحديده بسـهولة. وعلى ذلك يمكن القول بأن هذا الرأى يمكن أن يكون صادقًا إذا كان مـا يتحـدث عنه يكون عنصرا مـن أحد العناصر المكونـة لهذا الرأى. أى أن الحقيقة ليسـت مسألة تشابه أو اختلاف بين الحقيقة السلبية والموضوع غير المعلوم، ولكنها شكل من أشكال الهوية أو الذاتية Identity بين الواقع المؤثر والحقيقة الموجودة وجودا فعليا[1].

وتأكيدا لما سـبق يرى سـانتيانا أنه عند اسـتخدام الصدق كمعنى للحس المجرد الصحيح أو ككيفية تحتوى على الأحكام الصحيحة بشـكل تـام، فإن الكلمة الأخرى التى تعنى الواقع أو الحقيقـة يمكن اسـتخدامها لهذا الوصف المعيـارى لذلك الموضوع الـذى تنطبق عليه هذه الأحكام الصائبة، ولكن الواقع ليس وصفا لذاته بالنسبة لكلمة واقعيةReality إذا فهم معناها بأنها تعبر عن الوجود، فهى أيضا لا يمكن الإشـارة إليها بأنها عبارة عن وصف للوجود، ولكنها فقـط عبارة عن ماهية لـه، فالوقائعFacts دائما تكون عابرة أى قصـيرة المدى، وعندما تتلاشى هذه الوقائع فإن الذي يتبقى منها هو الماهية[2]. من هنا فإنه يوجد اختلاف واضح بين الصدق وأى حـدث آخـر، حيث أن الحدث يعـد فى حد ذاته حدثـا له تاريخ، وليـس تاريخ حدوث الموضوع حتى إن كان هذا الموضوع كائنا أو موجود وجودا فعليا، أو حتى لكونه معاصرا، أو مرتبطا بالموجودات الإنسـانية المطلعة بشـكل كبير على الأحداث التى وقعت في الماضى. ومن ناحية أخرى يمكن القول بأن الصدق ليس له تاريخ، فالصدق هنا يكون متطابقًا مع ما يحدث فى الواقع، سواء كانت هذه الآراء التى تقدم عن الصدق تظهر قبل أو بعد وقوع الحدث الذي يتم وصفه من خلال الحقيقة[3].

إن أبدية الصدق عند سـانتيانا تكمن فى شمولها جميع الحقائق، ولكن هذه الحقائق ليست متشـابهة السرمدية. حيث إن الأشخاص المغرمين الذين يسـتخدمون عقولهم في التفكير عادة مـا يعرفون الصدق على أسـاس من معتقداتهـم الخاصة، أى أن الحقائـق الأبدية هى عبارة عن

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.402.

(2) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 267.
See also, G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.403.

(3) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op.cit, P. 268.

معتقداتtents كان من المفترض أن تخص الأسلاف القدماء لبنى الإنسان، والتى يرفض هؤلاء الأسلاف التحلى بها[1].

بالطبع لا توجد معتقدات سرمدية كما يقول سانتيانا كما لا يمكن أن نعطى وجهات النظر الإنسانية الموجودة صفة الأبدية، حيث إن الأبدية هى صفة للماهية فقط، حتى ولو كانت جميع الأرواح التى فى السماء والأرض لها صفات مشتركة وجماعية فى أى عنصر من عناصر المذهب[2].

يرى سانتيانا أنه إذا لم يوجد هناك صدق مطلق وأبدى وشامل لكل الأحداث الواقعية، فإن وجهات النظر المأخوذة من وقت لآخر عن طريق الأفراد ربما تكون ذات طبيعة مطلقة، وربما تكون أيضا وجهات النظر هذه ليست لها صلة متصلة ببعضها البعض، ولا يوجد بينهما وجه للمقارنة من منطلق الصدق، وذلك لكون هذه الآراء بدون أى هدف أو موضوع تظهر من خلاله الماهية. ولهذا السبب فإننى أعطى اسما متميزا لهذه الشريحة المهمة من عالم الماهية واسميها عالم الصدق[3].

إن الصدق موجود بالتأكيد، وذلك إذا لم يكن هذا الوجود عبارة عن وسيلة أو صفة لهذا العالم الأبدى الذي يكون مملوءً بالمثاليات، ولكن الصدق يكون كريها وبغيضا بالنسبة للوجود الفيزيقى والعقلى، علاوة على ذلك ربما يتم مطابقة الصدق مع العقل عديم التأثير بشكل واضح، دون أن يكون لهذا العقل أى قدرة على الفعل اللهم إلا أنه يمتلك كل الصدق الموجود دون أن يكون له وجهة نظر فيه أو أى دفء حيوانى أو أن تكون له أى عملية إنتقالية، فالعقل والصدق عبارة عن تعبيرات لديها خلفيات استعارية ودلالات مختلفة، ولكن إذا لم يتواجد العقل فإن الصدق يستعير بعض المطابقات أو التماثلات حيث أن كل من العقل والصدق يستدعى ذلك المعيار المثالى الذى ينسبه العقل البشرى إليه، وأن هذه الوظيفة عبارة عن ماهيتهم المؤثرة حيث تؤكد ثباتهم السرمدى، كما أن هذه الخاصية تمنحهم بالتأكيد الواقعية الحقيقية والظاهرة[4].

(1) Ibid: p.268.

(2) Ibid: p.269.

(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.404.

(4) G. Santayana: Reason in Common Sense, vol I, in: the Life of Reason, Archibal constable, London, 1905, p.27.

يؤكد سانتيانا أن العادة tradition تمدنا بكثير من الحقائق والأحكام الضرورية، مما يجعل هذه الحقائق ثوابت لا تتغير مثل الحقيقة الرياضية 2+2=4 وأن الزمان والمكان ينقسمان إلى مالانهاية، وهذا يعنى أن لكل شيء سبباً وأن الله تعالى هو الحقيقة الوجودية لكل الكائنات، فهو موجود بالضرورة. كما أن العديد من هذه القضايا ربما تكون ضرورية، ويمكننا أن نتثبت من صدقها عن طريق ما تقدمه من تعريفات definitions لهذه الحدود، والذى يؤكد صدقها أيضا هو وقائع الطبيعة أى حقائقها، كما أن بعض هذه القضايا لابد أن تمتلك صدقا ماديا وضرورة منطقية، فالضرورة إذن هى أن صدق كل قضية ينبثق من قضية أخرى. لذلك فإن هذه النتيجة ربما تكون واضحة لأى إنسان يدرك أن طبيعة الوجود الأبدية أو ما يسميه سانتيانا بعالم الماهية، أنه مفهوم يسير فى حد ذاته، بل هو مفهوم حتمى إذا ما ركزنا اهتمامنا عليه[1]. أما الصدق فهو عبارة عن صورة وصفية للوجود، فإذا كان الوجود حتمياً contingent كان الصدق حتمياً أيضاً[2].

أما العالم الذى أجد نفسى فيه عالم غير عقلانى لا يمكن وصفه بالجنون، حيث إنه يحتفظ بالحركة فى طرق ثابتة ومستمرة بشكل أساسى، ولهذا السبب فإن الخبرة تتراكم وتعمل من خلال نطاقها المؤثر، فبالمقارنة به على الرغم من أن إصابتى بالجنون قد تكون محتملة، فعلى سبيل المثال لو أن الإنسان أصر على إيجاد سبب لهذا الوجود، وبدا هذا الوجود ثابتا لأصبت بدوامة جنونية في رأسى، وذلك لوجود حياة داخلية مرتكزة تعمل بداخلى، بالإضافة إلى اتصالى العضوى المألوف بالأشياء المادية.

إن الحياة الإنسانية مليئة بالصور الباقية على قيد الحياة، فقد تكون هذه الصور مصحوبة بتوقعات صحيحة أو خاطئة، بالإضافة إلى هذه التخيلات التى لا جدال فيها، وحتى أن أفكار الموضوعات المادية التى تعد غير ضرورية من الممكن أن تكون مهمة، مثلها فى ذلك مثل الرواية التى قد تكون مهمة ومثيرة، وذلك لكونها تثير بشكل درامي نفس العواطف التى تثيرها أحداث الحياة النشطة. ولكن إذا كانت هذه المثيرات أى الأفكار الشيقة الممتعة تتداخل مع أفعالنا أو بدت عبارة عن إدراكات، فإننا حينئذ نخدع ونحلم ونتحرك إلى الأمام حيث بيت الجنون[3].

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.407.

(2) Ibid: p.408.

(3) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 505.

أما المسألة الحسابية 2+2=4 مثلها فى ذلك مثل أى عملية حسابية أخرى، فهى عبارة عن معادلة تعمل على إيجاد علاقات ظاهرية معينة بين مصطلحات معينة، وأن جميع هذه العلاقات الحسابية تكون ذات أهمية عندما تعتمد على التعريفات أو الحدوسات التى تميز بين المصطلحات بعضها ببعض، والتى بدورها لا تكون ضرورية أو حتى ممكنة لعملية الاكتشاف أو العمل على إظهار العلاقات الضرورية للمصطلحات التى تم اختيارها فى الجوانب البشرية[1].

أنه على الرغم من كون الصدق فى حد ذاته المجال الوحيد للماهية، حيث إنه ينشأ عن حقيقة حتمية ومؤكدة، إلا أنه يكون محددا كما تكون الماهية محددة به، حيث يعمل الصدق فى حد ذاته على تأسيس انسجامات معينة تسيطر على عالم الفكر الذى برز بصورة أساسية من خلال الأحداث[2]. لذا كانت إمكانية اكتشاف الصدق، أو جزء من أجزائه غالباً ما تكون مشوبة بالصدق نفسه، كما لو كان الصدق يشبه الخطأ. فالنوعية الأخلاقية للفكرة أو الحكم عندما تنجح أو تخفق فى تقرير الواقع تعطى اهتماماً بهذه اللحظة المعنية، ولكن تكون الفكرة أو الحكم صائباً إذا كانت التقريرات صادقة وتكون كاذبة إذا كانت التقريرات متناقضة[3].

ومن دواعى سوء فهم الصدق أن نخلطه بالأحداث المادية events Material أو أن نخلطه بآرائنا الشخصية عن الأشياء، فالأحداث لا توصف بالصدق أو الكذب، بل أن القضايا هى التى يمكن وصفها بهذه الصفات، فالصدق عند سانتيانا ليس له مدلول مادى يدور حوله أو يشير إليه، والأحكام التي نصفها بالصدق أو الكذب هى قضايا واقعية لا نستطيع وصفها بهذه الصفات إلا فى إطار نسق صحيح من التمثلات Representations[4].

وعلى ذلك فإن الخبرة أو الفكرة يمكنهما أن يتضمنا الصدق، ولا نقول عنهم - الصدق والخبرة والفكر شىء واحد، بل إننا إذا لم نميز بينهم تمييزاً صحيحاً ما أمكننا وصف الوجود ذاته، فعلى سبيل المثال إذا قلنا إن ديفيد هيوم ولد عام (1711) فإن هذه القضية عن هيوم

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.408.

(2) Ibid: p.446.

(3) Ibid: pp.446.447.

(4) Guy w. Stroh: American philosophy from Edwards to Dewey, An introduction, van Nostrand Reinhold company, New York, 1968, p.228.

لا تصبح صادقة لأن هناك شـخصاً ما فكر فيها، بل إن عملية الفكر هنا سـاعدت على تحقيق مزيد من الصدق للقضية التى ذكرناها عن هيوم[1].

ولكن يعترض سانتيانا هنا على اعتبار الصدق مجرد فكرةidea حيث يراه مجرد حدث له تاريخ، كما أن مفهوم الفكرة من خلال السـياق الذي قدمه فيلسـوفنا مفهوما غامضا ومبهماambiguous حيث إنها تعنى الماهية أو قد تكون هدفاtheme أو شـيئا داخليا فى الشـعور أو الفكر، وقد تعنى أيضا الشـعور والفكر مجردين، أو تلك اللحظة الحدسـية الحية التى نستطيع عندها تمييز الماهية، وأخيرا قد تعنى الفكرة شـعورا أو فكرا ينشـأ عن قيمة ترنسـندنتالية ذاتيـة للاعتقاد أو الحكم، و يؤكد الحكم على الماهية المعطاة لكى نطبق صدقها على موضوعات أخرى آتية[2].

و بهذا المعنى الأخير فقد تعنى الفكرة عند سانتيانا مجرد الرأىopinion الذى يخضع للحكم عليـه بالصـدق أو الكذب، ولكن قـد تكون الفكرة مجرد شـعور برئ أو فكـر لا يؤكد على شيء أو ينفيـه، ولا يخضع للصدق أو الكذب، إنها حدس خالص لإحدى الماهيات. فإذا كانت الفكرة مفيدة فهى مفيدة ونافعة، ولكن لا تكون فكرة صادقة، و إذا كانت هذه الفكرة جميلة ومريحة، فليسـت لهذا السـبب تكون صادقة أيضاً، ولكن لكونها فكـرة مريحة وجميلة. و إذا كانـت الفكرة عبـارة عن تصور أو ربما قد تكون منسـجمة مع فكرة أخـرى، فإن الفكرتين تكونـان متناسـقتين، وربما التصوران معا قد يكونان على خطأ كبـير من أن يكون كل تصور بصورة منفصلة خاطئ على حده[3].

وهـذا مـا أكد عليه برتراندرسـل فى فلسـفة سـانتيانا، حيـث رأى أن عـالم الصدق عند الفيلسـوف محل الدراسـة يتضمن عالمى المادة والماهية، كما أنه يتضمن الماهيات التى يحتويها العـالم الفعلى، فقد يكون الصدق عرضيـاً منذ أن يصف الوجود، ولذلك كان مرتبطاً بالوجود. وأن وجهه النظر التى ترى أن الصدق يكمن فى الاتساق هى وجهة نظر مرفوضة وغير صائبة لأنها منطوية على عجز حتى الآن فالصدق ولا شك يخبرنا بشئ عن العالم المحيط بنا[4].

(1) Ibid: p.228.

(2) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p.447.

(3) Ibid: p.448.

(4) Bertrand Russell: Philosophy of Santayana, in the philosophy of George Santayana,Edited by, P. A. Schilpp, Tudor publishing Company, New York, 1651, p.460.

ومـن أبرز نقـاط الضعف فى نظرية الاتسـاق التى رفضها سـانتيانا أنه لـو لم يكن لدينا هـذا الشرط المقيد وهو أن تتفق نتائجنا مع الواقـع الموضوعى على نحو قابل للاثبات لغدا من الممكن عندئذ تشييد أروع وأعقد البناءات الفكرية على مقدمات لا يزكيها شيء سوى كونها تتفق مع مصالحنا الأنانية، أو كونها تتفق مع تطلعنا إلى نظرة إلى العالم تعطينا ثقة وأملاً[1].

أما الخطر الأسـاسى فى (نظرية الانسـاق) هو أن الذهن غير النقدى قد يعجب بالبناء فى صورتـه النهائيـة ونتائجـه إلى حد يؤدي به إلى إغفال ملاحظة الأسـس التى شـيد عليها البناء بأكملـه وكثيراً ما يحـدث عندما يقوم مفكر تحليلى بكشـف هذه الأسـس، وأن يتغير موقف الذهـن الـذى كان قبل ذلك يقبل النسـق بأكمله فيتحـول إلى رفض الكل، لأنـه لم يعد يقبل المقدمات الأصلية، ولكن الأكثر من ذلك حدوثاً أن ينقب هذا الذهن حوله محاولاً وضع أسساً خاصـة به تتألف من مقدمـات مقبولة أكثر من الأولى، ثم ينقل البناء الفكرى بأكمله سـليماً فوق الأساس الجديد[2].

وهنا يؤكد سـانتيانا على إصراره فى رفض نظرية الاتسـاق وشـتى الأنظمة المثالية الطابع، وإن كانـت واقعية سـانتيانا كـما أشرت فى بداية الفصل مشـوبة بنوع ما مـن الفكر المثالي، فـإن ذلك لا يمنعه من دحض الأفكار المثالية بوصفه فيلسـوفا طبيعيا أو واقعيا نقديا فى أواخر فلسـفته، فقد رأى فيلسـوفنا أن الأنظمة المثالية مازالت تطور وتـدرس شروط المعرفة الأولية وآخـر اهتمامات الحياة، أما الأنظمة المادية فمازالت تؤكد على هذه التحجرات concretions فى الوجود، لهذا كانت القيمة الروحية لهؤلاء الفلاسفة المختلفين تكمن بشكل أصلى على نوع الخير الذى يربط العقل بهذه العادةhabit كما يربطه بمسـتوى الفكرة[3]. فالفيلسوف الطبيعى على هذا الأسـاس يرحب بفكرة النقد وذلك لكون تراكيبه على الرغم من كونها ليسـت أقل إفتراضية أو تأملية، عن ذلك الفيلسوف المثالى، ولكن لكون تركيباته وبنائه عبارة عن بناءات شرعية وقانونية، كما أنها عبارة عن حقائق واضحة وصريحة[4].

(1) هنتر ميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، مرجع سابق، ص162.

(2) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p.185.

(4) Ibid: p.201.

وبالنسبة للصدق فهو عبارة عن فكرة واضحة وصريحة، كما أنه عبارة عن افتراضات مؤكدةverified hypothesis وحتميةinevitable وأيضا عبارة عن استنتاج مؤكد. فإذا كان الفيلسوف المثالى يخشى ويستنكر أى نظرية لمصدره ووظيفته الخاصة، فإنه عندئذ فقط يدين لغريزة التحفظ الذاتى، وذلك لأنه يعرف تماما أن ماضيه لا يقبل الاختبار، لذا فهو يعد الوارث لكل خرافة[1].

يقول سانتيانا إنه إذا كان المذهب المثالى راسخا فى كل بناء جاء للعقل الإنسانى، فإن المذهب التجريبى يمثل كل هذه الطاقات وذلك الكون الخارجى. أو كما يقول اسبينوزا عنه يجب أن يتعدى المذهب التجريبى طاقات الإنسان بشكل لا نهائى، فإذا كان التأمل meditation يغذى العلم، فإن الحكمة تأتى من خلال التحرر من الوهمdisillusion حتى فى موضوع العلم ذاته، فإن الانقياد أو الانصياعdocility نحو الوقائع هى التى تصنع عقلانية العلم[2].

وإذا كان سانتيانا يقول بأهمية الإشارة إلى الصدق على أنه جزء من عالم الماهية، ينشأ عنها، وذلك لكى نتجنب ما اعتبره من أخطاء البراجماتية والنزعة المثالية (نظرية الانساق أو الترابط) معاً. حيث جعلت البراجماتية الصدق جزء من وظائف الخبرة، مما أدى إلى الخلط بين الخبرة والصدق، أو بين الخبرة وعالم الروح، وهذا ما نفيناه فى الفقرات السابقة، فالخبرة والروح كلاهما يتغير وعليه فإن البراجماتية تؤكد على أن الصدق ذاته صدق ديناميكى Dynamic ومتغير Changing[3].

كما يرى سانتيانا فى موقف البراجماتية من الصدق تناقضا أيضاً، طالما أن الحوادث هى التى يصدق عليها التغير وليس صدقها، فإذا تغير الصدق الذى توصف به الحوادث، فإنه ستصبح بالتالى بعض أنواع الصدق كاذبة، وهذا محال[4]. وكذلك بالمثل فإن النزعة المثالية التى تجعل من الصدق حقيقة ذهنية فطرية، ومكان وجوده العقل، وأن باستطاعة العقل إدراك الصدق إدراكاً فطرياً، فإنه يبدو أن النزعة المثالية تخلط بين الفكر أو عالم الروح the Realm of Spirit

(1) Ibid: p.201.
(2) Ibid: p.202.
(3) Guy W. Stroh: American philosophy from Edwards to Deweys, op.cit, pp.228, 229.
(4) Ibid: P. 229.

وبين الصدق. وهنا يعلن المثاليون على أن وجود الصدق وجوداً منطقياً يتطلب العقل الذى يدركه، لأن الصدق الذى لا يمكن للعقل إدراكه ليس صدقاً على الإطلاق. ونخطئ عندما نتناول الصدق كشيء موجود نبحث عنه فللصدق وجود كلى Being طالما أنه ماهية معقدة a complex essence أو مجموعة من العلاقات وليس له وجود فعلى Existence، فالصدق يصف فقط هذا الوجود الكلى وليس جزءاً منه[1].

وبناء على ما تقدم يرى سانتيانا - أن استاذه «جوزايا رويس» وسائر المثاليين قد أخطئوا عندما ذكروا أن هناك أنواعاً من الصدق الضرورى ضرورة منطقية، فالمنطق يمدنا فقط بمعلومات عن مضامين أحاديثنا ورموز أفكارنا وليس عن قيمة صدق أفكارنا. فلا توجد حقيقة لها ضرورة منطقية، طالما أن الضرورة وظيفة من وظائف الكلام أو هى الطريقة التى نحدد بها الرموز لنشير إلى هذه الأفكار، وفضلاً عن ذلك فلا توجد قضية صادقة عن طريق تعريفها فقط، طالما أن حرية تعريف الحدود Define Terms تعود إلينا، فالصدق إنما يشير إلى ما يحدث فى وقت محدد[2].

من خلال ما سبق فإن طبيعة الصدق عند سانتيانا هى ببساطة التطابق correspondence مع ما هو كائن، أما البراجماتية فهى تعنى اختبار الصدق أكثر من كونها تطابقاً مع الواقع، وباختصار تكون طبيعة الصدق هى التطابق بينما اختبار الصدق هى البراجماتية[3].

(1) Ibid: p. 229.

(2) Ibid: p. 229.

(3) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).